# النخبة في تاريخ المغرب: قضايا وأسئلة
# قراءة في جلسة "النخب بمدينة فاس"

ذ.لطفي بوشنتوف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عين الشق- الدار البيضاء

يعد تخصيص جلسة لموضوع النخب بمدينة فاس، في ندوة المدينة المغربية: التراث والتاريخ والمجتمع (فاس والمجالات الحضرية بالمغرب)، اختيارا موفقا، نظرا للعلاقة البينة والمفترضة بين المدينة عامة وفاس خاصة وبين الشرائح المجتمعية المصنفة في دائرة النخب بمختلف مراتبها وتلويناتها.

## I - مضامين وقضايا

يمكن رصد القضايا الكبرى التي تناولتها مداخلات الجلسة بالعرض والتحليل بعجالة من خلال النقط التالية:

**1**- غلبت المقاربة النظرية على عرض النخبة والخاصة أية علاقة؟ الذي قدمه إدريس المنصوري. وقد انطلق الباحث من استنتاج عدم وضوح مفهوم النخبة، بحيث لاحظ أن استعماله لا يقتصر فقط على ما يقابل مفهوم العامة، وإنما أيضا كمرادف دال على أهل الحل والعقد والصلحاء والشرفاء والعلماء والقضاة والكتاب، أي على فئات معينة تصنف ضمن دائرة خاصة. ويستتبع الاستنتاج بالضرورة، في رأي الباحث، التساؤل عن الميكانزمات المتحكمة في وجود النخب واستمرارها ونزاعها وتوافقها وتماثلها، والبحث في طرق الاندماج فيها واختلاف أشكال الانتماء إليها حسب الفئات الاجتماعية، والكشف عن أصناف كاريزما كل فئة وطرق التمييز الاجتماعي داخلها أو حيال الفئات المغايرة ومنها العامة.

واستشهد الباحث بأربعة نماذج معبرة عن استنتاجه المذكور ومستوحاة من تاريخ المغرب.

استقى النموذج الأول من مراهنة الجنرال ليوطي، بداية الحماية، على الشرفاء باعتبارهم يمثلون صنفا أرستقراطيا أو بوادر أرستقراطية. وكانت غاية المقيم العام أن تلعب هذه الفئة المفترض تكونها من قياد وضباط، دورا مشابها لأرستقراطية فرنسا، أي السهر على الشأن العام. وتعكس المراهنة حذر ليوطي، الخبير بالتجربة الجزائرية، من فئة مقابلة هي الزوايا وما قد يصدر عنها من مقاومة ورد فعل عنيف.

يتعلق النموذج الثاني بأهل الحل والعقد، الذين يبرر وضعهم عادة بتقديم النصيحة. واعتبر الباحث هذه المجموعة ذات وجود مؤقت وتشتغل بصلاحية حل الأزمة. وعد ظهورها، كواقع ومفهوم في لحظات من تاريخ المغرب، دالا على أزمة تفرض تجاوزها بالرجوع إلى الوضع السابق لها نظاما وتراتبية. غير أن الباحث لاحظ أن وضع ما بعد الأزمة يكون دائما مختلفا عما قبله، باعتبار أن الصيرورة التاريخية ترفض الرجوع إلى ما سبق.

ويتمثل النموذج الثالث في الخاصة، الذين لاحظ الباحث أنهم مرتبطون بالمدينة، قياسا على أنه خلال الأزمة، لا يوجد من ينضوي إلى أهل الحل والعقد من خارج المدينة. غير أن المدينة موزعة إلى حومات ذات طابع إثني.

ويرتبط النموذج الرابع بخاصة التجار، الذين كشف القرن19م أنهم بحثوا عن انتماءات مغايرة مثل المحميين.

2- انصبت مداخلة مولاي هاشم العلوي القاسمي، بيوتات النخبة الفاسية، على التعريف بالنخبة في فاس، وذلك بدءا بالوقوف على فاس العالمة والمتحضرة ديمغرافيا وسياسيا واجتماعيا، خصوصا مند المرحلة المرينية. ولاحظ الباحث أن كتب الأنساب مثل بيوتات فاس الكبرى والصغرى لابن الأحمر، تبين أن نشأة البيوتات الكبرى في المدينة تعود إلى هجرات من المشرق كونت الأرستقراطية الأساس، وعددا من العائلات المهاجرة مثل القادريين والصقليين والعلويين. وأضاف الباحث أن المدينة استقطبت أيضا هجرات أندلسية

خصوصا خلال حروب الاسترداد، وهي التي كونت في رأيه بيوتات وتجارا. وأثار الباحث مجموعة من الأسئلة المركزية بخصوص رصد جذور هذه البيوتات وفاعليتها في المجتمع الفاسي، مستشهدا بمثال الأسر التي كونت بوادر ارستقراطية، من قبيل أسرة ابن حيون المهاجرة التي عمرت في المدينة على من سبقها من التجار، والأسر اليهودية التي استقرت في الملاح وامتهنت التجارة.

3- استعمل مصطفى الشابي، في مداخلته نخبة فاس وقضايا المغرب الكبرى في الفترة ما بين 1844 و1944، تراتبية النخبة للتدليل على كل من له سلطة مادية أو معنوية. وعرض موضوعه في قسمين زمنيين، 1844-1912 و1912-1944.

لاحظ الباحث في الفترة الأولى، أن المغرب كان تقليديا وذا بنيات عتيقة. وخلالها طرحت على النخبة، ومنها المخزنية، أسئلة مترتبة على معركتي إيسلي وتطوان وما لهما من تداعيات، أهمها تدخل الأجنبي في شؤون البلاد. وأنتجت النخبة في هذا الواقع كتابات تضمنت التنديد بهذا التدخل واقتراح حلول من شأنها صيانة سيادة البلاد وكرامة أهلها. ومن بين أصحاب هذه الكتابات الكردودي وابن عزوز اللذانناديا بالجهاد كوسيلة وحيدة لصد هذا الهجوم. وتأسست كتابات الجهاد على مرجعيات أخلاقية ودينية تفسر ما نزل بالبلاد بأنه عقوبة إلاهية، فلم تكن لها بالتالي نظرة واقعية ومتنورة. كما أن المخزن لم يقبل بالجهاد، الذي كان يفهمه أو يحصره في الدفاع عن التراب، من دون اللجوء إلى المواجهة المفتوحة، ما دامت المواجهة في إيسلي وتطوان بينت تفوق الأجنبي. وتزامنا مع فترة ما بعد1856، تبين للمغرب – حسب الباحث- أنه محاصر بأوربا، وأفتى بعض العلماء بأن الصلاة وراء المحمي لا تجوز، كما أفتى البعض الآخر بعدم الجهاد في بلاد بعيدة ليس للسلطان فيها نفوذ وليس له قبل بالمواجهة.

في الفترة الثانية، تبين للباحث استطاعة النخبة، البعيدة عن السلطة، الاستمرار بعد 1912. وعلل ذلك بقدرة النخبة الفاسية الهائلة على التكيف وتجنب الصراع مع الآخر،

وبالنفوذ المستجد والطارئ عليها بفضل الطبع الأندلسي. وفي عهد الحماية، خلفت السلفية التي تأثرت بالصحوة المشرقية، نوعا من اليقظة، تمثل في وعي جماعة من المغاربة بما يهدد البلاد . وهي الجماعة التي أطلق عليها علال الفاسي اسم الشباب الناهض. وتزايدت أهميتها من منطلق تشكيلها لصفوة الحاملين للشعور الوطني والدعاة إلى الإصلاح. وولدت، بعد الظهير البربري، سلفية جديدة مكونة من متعلمي المعاهد العربية والفرنسية. وهي التي صاغت دفتر المطالب سنة 1934.

**4-** اختار محمد اليزيدي، في مداخلته دور التعليم في تشكيل النخب بمدينة فاس إبان فترة الحماية، الكشف عن محاولة الحماية الفرنسية إعادة تشكيل النخب، نظرا لأنها وخلافا لبلجيكا اعتبرت تعليم الأهالي مطلبا مركزيا. وقد كانت لليوطي إستراتيجية خاصة في تكوين النخبة، لأنه ركز على الشباب في تغيير مواقف البرجوازية مستقبلا، وعلق آمالا على التعليم لتكوين نخبة وسيطة وقادرة على التفاهم مع الحماية، من دون أن تكون منسلخة عن أصولها اللغوية والثقافية. وهكذا اتجه هذا المقيم العام إلى إنشاء مدارس أشرف عليها، مما ترتب عليه طرح السؤال عن طبيعة خريجي هذه المدارس، هل تكمن في محتفظين بالدين أم في مسلمين حديثين. والظاهر، في رأي الباحث، أن اختيار ليوطي استقر على سحن المغاربة في ثقافتهم التقليدية، أي نهج سياسة المغرب البطيء. وهكذا تم سنة 1916 إحداث مجلس أعلى إسلامي، وتم الرهان على فاس لتكوين أطر تجارية وإدارية محدودة، مع إحداث تعليم فلاحي وتجاري في فاس وثانوية إسلامية وتكوين أطر الأبناك والبريد والمخزن.

ولاحظ المتدخل اختلافا في الحكم على تجربة ليوطي، بحيث وصمت إنجازاتها بالسطحية. وعلل ذلك بأزمة في إيجاد مناصب شغل للخريجين، وبعراقيل التوظيف في الإدارة المخزنية، بحيث تم التراجع عن الغاية المسطرة لهذه السياسة والاتجاه بدلا عنها إلى التوظيف في التجارة والترجمة والحرف. ومن ثم أصيب رهان الآباء والأبناء في الثانوية الإسلامية مثلا بخيبة لأنه أوكلت إليهم بعد التخرج مناصب للمبتدئين. وهذا الفشل هو الذي يفسر اختيار

المقيم العام بيتان (Pétain) عائلات بعينها لشغل مناصب إدارية. هذا فضلا على كون ضعف الاستقطاب للمدارس وللمناصب ولبعض المهن يفسر بدوره الإخفاقات الكبرى لسياسة فرنسا التعليمية.

وخلص الباحث إلى أن سياسة الحماية التعليمية تنحصر في تحول تقني، لم يجدد النخبة في العمق، ولم يستفد منه المغرب، ولم يحدث القطيعة ولا الاستمرارية، بل رسخ وجود التيارين العصري والتقليدي. وغاب بالتالي دور المدرسة كآلية للتغيير الاجتماعي. في حين تأكد أن الحماية سجنت المغرب في التقليد عوض إدخاله إلى العصرنة.

**II– أسئلة القضايا**

يتيح الحديث عن النخبة، عبر تاريخ المغرب وفي فاس على وجه التمثيل، فرصة للتأمل والمساءلة، أجملها– وهذه قراءتي الخاصة لجلسة النخب– في مجموعة من القضايا، تنتظم في علاقة النخبة بمفهوم وثيق بها وهوالحركة الاجتماعية.

**القضية الأولى**: في ضرورة رصد تعريف إجرائي للنخبة

تعد النخبة من أهم موضوعات علم الاجتماع، ومع أن هذا المفهوم قد تبلور منذ عقود من الزمن، فإن اللبس والغموض لا زالا يصاحبانه عند من وظفه أوقاربه في الأبحاث التاريخية المغربية الحديثة. ولعل مرد ذلك أن الكلمة لم ترد في المصادر، وإنما وجدها الباحثون تتوافق وتتماهى في حدود متفاوتة مع" أهل الحل والعقد" و"الخاصة" و"البيوتات" وذوي السياسة والحكمة، أي مع رجال الحكم والشيوخ القواد والشرفاء والعلماء والصلحاء والتجار والحرفيين.

والمتعارف عليه في أوساط المشتغلين بالأنثربولوجية التاريخية أن النخبة عبر تاريخ المغرب، تستمد نفوذها من ثلاثة أصناف من الرأسمال تتداخل في بعض الحالات، وهي:

- **الرأسمال الرمزي**، بالنسبة للعلماء والشرفاء والصوفية. وتمثل هذه الفئات، التي تدعي كلها إرث الأنبياء، أقلية ذات مستوى تعليمي مرتفع أحيانا وسط أغلبية أمية. كما يتميز بعضها بامتلاكه خاصية البركة وتوظيفه إياها، ويتميز بعضها الآخر باحتكار هبة الانحدار من البيت النبوي. وترصد لهذه الفئات عبر تاريخ المغرب أدوار ووظائف مركزية، من قبيل الوساطة والتحكيم في النزاعات والتجنيد لحماية الدين واحتكار المناصب والخطط وتوارثها.

- **الرأسمال المادي**، بالنسبة للحكام والتجار والحرفيين.

- **الرأسمال البيولوجي**، أي السلالي-الطيني، بالنسبة للبيوتات الكبرى، من قبيل الشرفاء والأندلسيين والبلديين.

وبناء على هذا التصنيف، يشترط استحضار مفاهيم مقابلة، من قبيل "العامة"/ "العوام"، و"الجمهور"، بل وحتى" القلة". وبناء عليه أيضا، تفهم الوظائف المنسوبة لمكونات النخبة، والعلاقات التي تجمعها بالسلطة والمجتمع. غير أن السؤال الذي يفرض نفسه استتباعا لهذا البناء هو هل كل من حمل قلما وكتب أو حصل على إجازة أو ملك رأسمالا ضخما أو شغل منصبا وتقلد وظيفة يعد من النخبة؟

النخبة حسب علماء الاجتماع لها مكانة متميزة وذات اعتبار، وتمتلك القوة والتأثير، وتتميز بالتفوق في العمل والقدرة على ممارسة وظائف سياسية واجتماعية من دون الحاجة إلى دعم أو تأييد خارجي، لأنها تتمتع بمواصفات ذاتية وبقوة التنظيم وبوجود دافع وهدف تسعى إليه في مواجهة أغلبية غير منظمة. وهذا ما يميزها ويؤهلها لاحتكار المناصب والوظائف.

كذلك يفهم من هذا التعريف الإضافي أن النخبة هي التي تشارك في صياغة تاريخ الجماعة التي تمثلها، سواء باتخاذ القرارات الحاسمة أو بتبني الأفكار والمشاعر المتميزة.

من المؤكد أن الوقائع التاريخية والمصادر تمكنان الباحث من رصد الأصول الاجتماعية والثقافية لنخب بعض مدن المغرب، كما تمكننا من الوقوف على أدوارها وأنشطتها ومواقفها. غير أن ما نعلمه عن آليات المصاهرة والروابط العائلية وشبكات المشيخة وأنماط السلوك، يقابله جهل شبه مطبق بتطلعات النخب سيما وأن بروزها يكاد ينحصر في لحظات التوتر.

**القضية الثانية:** في نخبة التجار

غاب عن جلسة النخب الحديث عن التجار، وهم الفئة التي لا يستقيم مجتمع من دونها، ويثير وضعها عبر تاريخ المغرب أكثر من ملاحظة.

شكلت الثروة وسيلة للارتقاء الاجتماعي، لكنها لم تكن دوما تخول من يمتلكها الإنتماء إلى النخبة. كما أن درجة نفوذ التجار وتأثيرهم وإن كانت محدودة لم تكن دائما مناسبة لدرجة غناهم أو متطابقة معها. هذا فضلا على أن التجار لم يلعبوا في الغالب دورا هاما في تقرير مصير المدينة والبلاد ،إلى غاية القرن 19م على الأقل، لأن أدوات النفوذ السياسي بقيت في يد النخب الممثلة فيما يسميه علماء الأنتروبولوجيا بالمجموعات البيولوجية مثل الشرفاء والبيوتات العريقة والمجموعات الدينية أي العلماء والصوفية. هذا فضلا على أن التجار في حالات كثيرة كانوا يدينون بالولاء للمجموعات التي ينتمون إليها بيولوجيا أو ينخرطون فيها روحيا أو للمخزن الذي يستظلون به.

ووفق هذا المنظور، يضاف غياب روابط مهنية إلى ملاحظة أن المحيط العام لم يكن يساعد على تقوية هذه الفئة/ النخبة وعلى تعميق وعيها بذاتها وقدرتها على التأثير. ذلك أن المنظومة الفقهية لم تكن تشجع على تراكم رأس المال ولا على تنميته، والتصوف كان يدعو إلى التقشف، والمخزن لم يكن يتردد في تتريك أو استغراق ذمة من تكبر ثروته.

**القضية الثالثة:** في البنيات التقليدية للمجتمع المغربي وتأثيرها في سلوك النخبة السياسي

ظلت بنيات المغرب مستقرة خلافا لمثيلتها المجاورة التي عرفت الحكم العثماني المباشر والممتد والاحتلال الفرنسي المبكر والطويل، ولم يتقلص في المغرب مفعول العناصر المركزية التي كان يقوم عليها النظام التقليدي أي المخزن والقبائل ورجال الزوايا والطرق.

وفي ظل هذا الواقع تطرح الأسئلة التالية:

- هل مثلت النخب، وهي المكونة من الذين شغلوا مواقع قيادية في قطاعات مؤثرة مثل الجيش والاقتصاد والسياسة، الشرائح المجتمعية التي انتمت إليها؟

- هل مثلت النخب فئات متجانسة، تجمعها مصالح معنوية ومادية مشتركة؟ سيما وأن ولاء العالم والصوفي والشريف وحتى التاجر لم يكن دائما لأولئك الذين يتقاسم معهم العلم والتصوف والشرف والتجارة، ويدافعون معه عن نفس المرجعيات والمصالح، إذ كثيرا ما كان يقف هؤلاء إلى جانب فئات غير فئاتهم، وذلك حين يتم تغليب مشاعر الانتماء للدين والزاوية والطريقة والقبيلة.

- ما هي انعكاسات صعوبات الانضمام إلى شبكات النخب والاندماج فيها؟ وما هي نتائج حالات رفض المصاهرة بل وحتى المشيخة العلمية والصوفية والظن في الشرف؟

- ارتبطت النخبة أكثر بالمدينة حيث مقر الحركة الدينية والعلمية ومدار النشاط الاقتصادي ومستقر المخزن. فهل ضعفها راجع لطبيعة المدينة وبنياتها العقلية والاقتصادية والمجتمعية؟

**القضية الرابعة**: في أدوار النخب السياسية

يمكن، من ناحية الافتراض النظري على الأقل، اختزال العلاقة بين السلطة السياسية والنخب في الرهانات المزدوجة التالية: طموح النخب وتطلعها إلى المساهمة في تدبير الشأن العام المحلي والعام وإن في حدود، ورغبة السلطان في احتوائها وتوظيفها، عن طريق توزيع المنافع السياسية والمادية، وإلحاق خاصة الكتاب والقواد والعمال بالمخزن على أساس الانتماء والوجاهة الاجتماعيين والثروة والكفاءة والولاء.

غير أن تتبع علاقة النخب، وخصوصا التي اصطلح على نعتها بأهل الحل والعقد، بالسلطة/ الدولة، يفضي إلى إعادة النظر في الأدوار الموكولة إليها وحمولة الأوصاف التي ألصقت بها. والشاهد على ذلك أن نخبة فاس، علماء وشرفاء وصوفية وتجارا، لم تغير مطلقا من ترجيح كفة الغلبة/العنف على كفة البيعة كلما طرقت الدول الكبرى أبواب الحاضرة. ذلك أن كل هذه الدول تقريبا دخلت الحاضرة عنوة وبقوة الغلبة بل وأحيانا بعد أحداث درامية لم تسلم منها فضاءات مقدسة وفي حق قمة هرمية النخب.

والشاهد أيضا على محدودية الفعل/الحركة لدى بعض مكونات النخبة مثلا أن العلماء وحتى الصوفية لم يوفقوا إلا في حالات شاذة في الانتقال من مستوى إبداء النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مستوى تحقيق الحركة الاجتماعية. ومرد ذلك لا يقتصر على ما ذكرناه من الأسباب، بل يرجع أيضا إلى عقلية هؤلاء العلماء المتسمة بالتردد بل والإحجام عن أي دور قد يفضي إلى عكس النتائج المتوخاة منه.

والشاهد على ذلك أن غالبيتهم التزموا أحكاما من فقه الإمامة الكبرى تلح على الانتظام في الطاعة مهما كانت أحوال السلطة خوف الفتنة، ولم يجرؤ إلا القلة وفي حالات فريدة وسياقات استثنائية على كسر طوق هذا الحكم. ومن هؤلاء القلة ابن أبي محلي، الذي كتب "ولم نخش الفتنة ؟ فإنها حصاد الكافرين"، في إشارة إلى أن اضطرابات ما بعد القيام

على السلطان قد لا تؤدي بالضرورة إلى الفتنة، وإنما قد تكون مناسبة تطهير من الفاسد وإبقاء للأصلح. غير أن ابن أبي محلي لم يكسر الطوق إلا قبيل لحظات من إعلانه الثورة.

**القضية الأخيرة**: في المقارنة بالتجربة الغربية

المؤكد أن المقارنة صعبة وقد توصف باللاتاريخية، لاختلاف الشروط وتباين الظروف. غير أن استحضارها، كما دعت إلى ذلك محاضرة الافتتاح، قد تساعد على إيجاد أجوبة لأسئلة عالقة، من بينها:

- دور المدينة في تغييب البرجوازية

- دور الحكام/المخزن في إضعاف النخب/الشركاء، خلافا لاختيارات ملوك أوربا خلال التحولات الفيودالية التي أفضت الى العصر الحديث. ومن هنا نفهم بداية استعمال مفهوم النخبة في الغرب في القرن12م، ودلالته على الانتخابELU والشهرةEMINENT والتمايزLE DISTINGUE منذ القرن 14م.

ما من شك أن المؤرخ الباحث في موضوع النخب في علاقتها بالمدينة ومنها فاس، يجد نفسه بين خيارات حاسمة تحدد وتوضح أكثر المقاربة وحقل الاشتغال، وهي : تطويع المادة أو تطويع المفهوم؟ مفهوم ينتج عن دراسة أم دراسة مبنية على مفهوم؟ الواقع المفترض أم الخطاب المكتوب أم بالصورة الموروثة؟

| | |
|---|---|
| العنوان: | النخب الفاسية |
| المصدر: | أشغال الأيام الوطنية السادسة عشرة - فاس والمجالات الحضرية بالمغرب: التاريخ والتراث والمجتمع |
| الناشر: | الجمعية المغربية للبحث التاريخي |
| مؤلف: | هيئة التحرير(عارض) |
| محكمة: | نعم |
| التاريخ الميلادي: | 2008 |
| مكان انعقاد المؤتمر: | المغرب |
| الهيئة المسؤولة: | الجمعية المغربية للبحث التاريخي - المغرب |
| الشهر: | نوفمبر |
| الصفحات: | 13 - 68 |
| رقم MD: | 598795 |
| نوع المحتوى: | بحوث المؤتمرات |
| قواعد المعلومات: | HumanIndex |
| مواضيع: | الإستعمار الفرنسي ، النخب ، فاس، المغرب |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/598795 |